٢ - الاسكلة القرطاجية:

إن موقع هذا الميناء الممتاز المتصل بحوضي البحر المتوسط هيأ قرطاج لأن تلعب دورا في التجارة العالمية، وقد استغلت جميع مزايا هذا الموقع استغلالا منظما. وربما ورثت كل شيء من الاستعمار البونيقي في الغرب. فقد ورثت مراكزه التجارية وعرفت كيف تنمي هذا الإرث، لم تحاول قط بسط نفوذها السياسي في داخل البلدان المحتلة، واكتفت في افريقية نفسها بمساحة من الأرض متواضعة نسبيا. ولكنها ضمنت لنفسها مراقبة سواحل بلاد البربر المتوسطية والأطلسية، وكذلك سواحل اسبانيا الجنوبية ومراكز التموين الضرورية، وفي الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط: مالطة والجزر المجاورة وغربي صقلية وجنوبي سردانية وجزائر البلجار -وإذا هي لم تتمكن من إقصاء اليونان عن صقلية والسواحل الايطالية والغولية والاسبانية واضطرت، كما يفيدنا بذلك أرسطاطاليس إلى أن تحسب حسابا للاتروريين وإلى التفاوض مع الرومان في فترة معينة، فإنها حققت على كل حال مجموعة من نقط "الارتكاز" يكون مجموعها إمبراطورية حقيقية.

وهكذا كان لها أسكلة وزعت توزيعا ماهرا لتكون أسواقا ومراكز تموين: فنجد

(في افريقية أسواق سيرتا الصغرى والكبرى مثل لبدةLeptis Magnaوقابس)

(Tacapace ou Tacapasومواني البلاد الليبية الفينيقية: رأس الديماس)تابسوس( )

(ولمطة) لبتيس مينور(وسوسة)حضرموت(وأوتيكة وبنزرتHyppo Diarrytusوفي ،)

(شرقي رأس بوقرعون: عنابةHyppo Regius(سكيكدة)Rusicade(بجاية)Saldae)

(دلسRusccum(ماتيفو)Rusguniae(الجزائر العاصمة)Lcosium(شرشال)Lolقبة)

(سيدي إبراهيمGuniga(تناس)Cartennaeوعلى ضفة البحر الأطلسي العرايش)

(وتشميشLuxus(ومستعمرات حنون وفي اسبانيا قادس)Gades(مالقة)Malaga)

(حدرةAbdère(سكسي)Sexi(وفي سردانية: ترى دي سان جيوفاني ،)Thanosسانت)

(Sulcis(سانت افيوزوز)Nora(كاغلياري)Caralis(ترانوفا)Olbiaوفي صقلية، ،) أنتيوكو

مدن الغرب: بالرموPanormus(مرسلا))Lilybacum.)

وإذا احتفظت بعض المستعمرات كلمطة وأوتيكة أو قادس بنوع من الاستقلال فقد سيطرت قرطاج على بقية المستعمرات بشدة، ولم تتردد عند الحاجة في إجلاء السكان عن مناطق شاسعة أو فرض الضرائب المرهقة وخصت أصحاب السفن التابعين لها بتعاطي التجارة وحدهم وبذلك حالت دون أي تقدم اقتصادي في الموانى الأخرى.

٣ - رحلات خيملكن وحنون:

أظهرت قرطاج في بحثها عن الأسواق جرأة نادرة وامتدت مطامحها إلى ما وراء أعمدة هرقليس. وقد أسند لاثنين من الماغونيين في أواسط القرن الخامس القيام بمهام في بلاد بعيدة. فحاذى "خيملكن" سواحل اسبانيا وبلاد غوليا إلى أن وصل على ما يبدو إلى انقلترا، وحتى إلى ارلندا نفسها، ولا شك أنه كان يعتزم تحويل تجارة القصدير والرصاص التي كانت تسعى مرسيليا في احتكارها إلى قادس. أما حنون "الملك" فقد اتجه نحو الجنوب مصحوبا بستين سفينة مشحونة بالمهاجرين، وعندما رجع أذن ينقش رواية مآثره التي نجد اليوم صدى لها في ترجمة أو تخليص باليونانية. إلا أن تأويل هذا النص لا يخلو لسوء الحظ من صعوبات كثيرة أدت بالمعلقين إلى أن يستنتجوا استنتاجات مختلة ومتنوعة.

فأما "س.قزال" فإنه يزعم أن حنون انطلق من قادس فأسس سبعة مراكز أقصاها (جنوبا مركز "قرنة" الذي يوجد على سبيل التقريب في مستوى الجزر الخالداتLes Canariesثم واصل سفره عرض السواحل الإفريقية إلى أن أشرف على خط الاستواء.) وإلى عهد غير بعيد لم يقدح أحد في هذا التأويل الذي أصبح كالمرجع اللهم إلا في بعض الجزئيات. ومنذ بضع سنوات فقط انتقده كاركوبينو انتقادا لا هوادة فيه. وهو لم يناقش نقطة انطلاق حنون ولا خاتمة مطافه ولكنه عأرض من سبقه في نقط ثلاث. فهو أولا لا يعتقد أن حنون اتبع خطا واحدا، بل يرى أنه قام بسلسلة من الرحلات ينظم كل واحدة

منها في مركز جديد أبعد من المركز السابق، وهو ثانيا يجعل جزيرة قرنة في نقطة أكثر توغلا في الجنوب قرب جزيرة "هرنة" الموجودة عرض "فيلاسز نيروس")ريودورو(. وهو

ثالثا وبالخصوص يعتبر أن غاية هذه السفرة هي إحلال قرطاج محل "لكسوس" المركز الفينيقي العتيق في استغلال تجارة الذهب المستخرج من السودان والذي كانت القوافل تحمله إلى جزيرة قرنة. وبالرغم عن أن هذه النظرية أثارت بعض التحفظات، وربما شيئا من المناوأة الصريحة أحيانا فإنه لا مناص من الاعتراف بأنها ألقت الأضواء الكاشفة على هذه الرحلة التي كان الجميع يعتبرون الدافع الأصلي إليها حب الاطلاع العلمي. وما نعرفه عن البونيقيين يحملنا على الاعتقاد بأنهم كانوا بصفة عامة مهتمين بالتجارة لا بالجغرافيا. وقد ذهب أخيرا بعض المؤرخين إلى أن حنون لم يتجاوز قط واد الذراع جنوبا.

٤ - القرطاجيون جوابو بحار:

إن حياة قرطاج واتجاهاتها السياسية تدل فعلا على أنها كانت مدفوعة دائما بضرورة البيع والشراء، وأن دورها الاقتصادي الرئيسي يتمثل على ما يبدو في جمع المواد الأولية ثم توزيعها على نحو ما فعله الهولانديون من بعد تقريبا، وكانت المواد المصنوعة تمثل عنصر المبادلة.

و أوضاع الإمبراطورية القرطاجية نفسها تؤكد أن الأساكل لم تكن لها أهمية من حيث الملاحة وحدها، بل من حيث إنها نقط الانطلاق والوصول بالنسبة للبعثات والقوافل. كانت منتوجات إفريقيا الوسطى كالذهب والعاج والجلود والعبيد تصل إلى سيرتا الصغرى وسيرتا الكبرى أو إلى المستعمرات الأطلسية، وكانت اسبانيا تزودها بفضة مناجمها وبالمعادن والعنبر المجلوبة من الشمال عن طريق البحر. وكان زيت صقلية وخمرها وحبوب سردانية ونحاسها وفضتها تصل كلها إلى قرطاج أيضا.

ويظهر أن هذه التجارة اعتمدت طويلا على مبدإ المقايضة البسيط. ولم تضرب قرطاج نقودها البرنزية الأولى إلا في النصف الثاني من القرن الرابع، وفي القرن الثالث ظهرت النقود الفضية. والذي دفعها إلى ضرب سكتها هي ضرورة عسكرية أكثر منها تجارية. فالشعوب المتفاوتة بدائية التي كانت لها روابط اقتصادية بقرطاج كانت قبل أن

تتأثر بما ترمز إليه قطعة النقود المعدنية ترغب في اقتناء المنتوجات المصنوعة لترويجها عندها كالأقمشة وآنية الخزف والبلور والأسلحة، والمصنوعات الخشبية والعطورات وبصفة عامة البضاعة البونيقية الرديئة.

٥ - الصناعة:

لم تتميز صناعة قرطاج لا بالنشاط الفائق ولا الابتكار المبدع، ومما لا شك فيه أن البونيقيين تخصصوا بحكم الضرورة في صنع السفن وآلات المواني التي ربما كانت من اختصاصات الدولة. إنهم صنعوا الحديد والنحاس والبرنز والمعادن الثمينة والأسلحة والمتاع المطلي أو البلوري وأدوات التجميل العاجية، والخرز، وخصوصا الجعلان المستعملة خواتم، والآنية الخزفية الصالحة للاستعمال، المزخرفة أو البسيطة، الموجودة بكثرة في القبور والتي تمتاز بتنوع الأشكال، وكذلك الأقنعة المكشرة أو الضاحكة المودعة في القبور أيضا، وبعض أواني الفخار المتقنة الصنع. ونجحوا أيضا في الصباغة والحياكة والدباغة. واشتهرت أيضا بصناعة الخشب البونيقية كما تشهد بذلك الصناديق الموجودة في "سميرات" و"جيغتي" بالخصوص. أما المنتوجات الممتازة والأنيقة فكانت تجلب من أماكن أخرى.

٦ - الفلاحة:

لم يتيسر للفلاحة أن يكون لها إنتاج ذو بال لأنها كانت مقتصرة على الأراضي الليبية التي فتحتها قرطاج وضواحي مستعمراتها، إلا أن شهرتها كانت رغم ذلك عظيمة فمنذ أواخر القرن الرابع وقف أغاثوكل مدهوشا أمام ثروة الزياتين والكروم والماشية. وينسب الرومان إلى البونيقيين اكتشاف الأدوات الفلاحية. وأذنوا بترجمة كتاب الفلاحة الذي ألفه البونيقي ماغون في ٢٨ جزءا. ولم يقتصر المؤلف على إسداء النصائح حول الزراعة وتربية الماشية بل ضبط كذلك ضبطا مدققا قواعد إدارة الأملاك الريفية. ويتعذر علينا أن نضبط وضعية الأملاك في المناطق الإفريقية الخاضعة لقرطاج. فالذي لا شك فيه أن الطبقة الارستقراطية كانت تملك دورا ريفية فخمة في الغالب وسط أراض شاسعة، إن لم نقل ممتلكات فسيحة، كما سيكون الشأن فيما بعد بالنسبة

للرومان الأغنياء. وليس من المستبعد أن نعتقد أن الدولة لم تستغل أملاكها بنفسها، وإن النبلاء كانوا يستغلونها مكانها. وكان الليبيون الذين انتزعت منهم أراضيهم هم الذين يخدمون الأرض بطبيعة الحال بصفتهم عمالا مسخرين أو رقيقا. ولربما شغلوا أجراء يوميين للقيام ببعض الأعمال.

والطبقة النبيلة الساهرة على إحياء الأراضي كانت تتعاطى زراعة الأشجار من زيتون وتين ولوز ورمان وكروم. وكانت تتعاطى تربة الخيل والبغال والبقر والغنم والمعز، وكانت ش. جوليان تاريخ شمال إفريقيا

٩٤ ٩٥

هذه المواشي كثيرة جدا حتى أن بوليب جزم بأن قرطاج لا تضاهي في هذا الميدان. إنها لم تستمد من أرضها أرباحا طائلة بدون شك أو هي على الأقل لم تستمد كل أرباحها من الأرض. وقد كان الأهالي يزرعون الحبوب. وكانوا يستعملون محراثا حديدته مثلثة الشكل وآلات الدراس المتنوعة.

وكان القرطاجيون يربون كذلك الدواجن ونحلا شمعه مشهور. كما كانوا ينتجون الزيت بأساليب لا يمكن الاهتداء إليها اليوم وخمرا كثيرة ربما عالجوها بالجبس. ولا شك أنهم كانوا صيادين في البر كما كانوا يتوغلون في البحر بحثا عن السمك فيملحون "التن" في المراكب نفسها.

وفي الجملة يظهر أن الاقتصاد الفلاحي المعتمد على علم فلاحي قائم بذاته ربما سمح بضمان الاستهلاك المحلي، ولكنه لم يوفر مادة كافية للتصدير.